

## حكايات حارتنا

١



# حكايات حارتنا

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية  
وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

دارالشروق



## الحكاية رقم « ١ »

يروق لى اللعب فى الساحة بين القبور والتكية . ومثل جميع الأطفال أرنو إلى أشجار التوت بحديقة التكية . أوراقها الخضراء هى ينباع الخضرة الوحيدة فى حارتنا . وثمارها السود مثار الأشواق فى قلوبنا الغضة . وها هى التكية مثل قلعة صغيرة تحدى بها الحديقة ، بوابتها مغلقة عابسة ، دائما مغلقة ، والنوافذ مغلقة فالمبنى كله غارق فى البعد والانطواء والعزلة ، تمتد أيدينا إلى سورته كما تمتد إلى القصر .

وأحيانا يلوح فى الحديقة ذو لحية مرسله وعباءة فضفاضة وطاوية مزركشة فنهتف كلنا .

- «يا درويش . . إن شاء الله تعيش» .

ولكنه يمضى متأملا الأرض المعشوشبة أو يتمهل عند جدول ماء ، ثم لا يلبث أن يختفى وراء الباب الداخلى .

- من هؤلاء الرجال يا أبى؟

- إنهم رجال الله . .

ثم بنبرة ذات معنى :

- ملعون من يكدر صفوهم!

ولكن قلبي مولع بالتوت وحده .

وينهكنى اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لاستريح ثم  
أغفو . أستيقظ فأجدني وحيدا في الساحة ، حتى الشمس توارت  
وراء السور العتيق ، ونسائم الريح تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل .  
على أن أمرق من القبو إلى الحارة قبل أن يدلهم الظلام . وأنهض  
متوثبا ولكن إحساسا خفيا يساورني بأننى غير وحيد ، وأننى أهيم فى  
مجال جاذبية لطيف ، وأن ثمة نظرة رحيبة تستقر على قلبي ، فأنظر  
ناحية التكية . هناك تحت شجرة التوت الوسيطة يقف رجل . درويش  
ولكنه ليس كال دراويش الذين رأيت من قبل . طاعن فى الكبر ، مديد  
فى الطول ، وجهه بحيرة من نور مشع . عباءته خضراء وعمامته  
الطويلة بيضاء وفخامته فوق كل تصور وخيال . ومن شدة حملقتى  
فيه أتمل بنوره فيملاً الكون . وخاطر طيب يقول لى إنه صاحب  
المكان وولى الأمر ، وأنه ودود بخلاف الآخرين . اقترب من السور ثم  
أقول بابتهاال :

- إنى أحب التوت . .

فلم ينبس ولم يتحرك فأتوهم أنه لم يسمعنى ، أكرر بصوت  
أعمق :

- إنى أحب التوت . .

يخيل إلى أنه يشملنى بنظرة ، وصوته الرخيم يقول :

- «بلبلى خون دلى خورد وکلى حاصل کرد» .

ويخيل إلى أنه رمى إلى بثمره فأنحنى نحو الأرض لألتقطها فلا  
أعثر على شيء ثم استقيم فأجد مكانه خالياً، والظلمة تغشى الباب  
الداخلي .

وأقص القصة على أبي فيرمقنى بارتياح فأؤكد لها له فيقول :

- تلك الأوصاف لا تكون إلا للشيخ الكبير ولكنه لا يغادر خلوته!

فأحلف له على صدقى بكل مقدس فيسألنى :

- ترى ما معنى الرطانة التى حفظتها؟

- سمعتها مرارا ضمن تراتيل التكية .

فيصمت أبى مليا ثم يقول :

- لا تخبر بذلك أحدا .

ويسط يديه ثم يتلو الصمدية .

وأهرع إلى الساحة فأتخلف وحدى بعد ذهاب الصبيان . انتظر  
ظهور الشيخ فلا يظهر . أهتف بصوتى الرفيع :

- «بلبلى خون دلى خورد وکلى حاصل کرد» .

فلا يجيب . أعانى بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتى .

وأتذكر الحادثة فى زمن متأخر، أتساءل عن حقيقتها، هل رأيت  
الشيخ حقا أو ادعيت ذلك استوهايا للأهمية ثم صدقت نفسى؟، هل  
توهمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال فى بيتنا عن الشيخ  
الكبير؟ . . هكذا أفكر، وإلا فلماذا لم يظهر الشيخ مرة أخرى؟ . .

ولماذا يجمع الناس على أنه لا يغادر خلوته؟ . . هكذا خلقت أسطورة  
وهكذا بددتها . غير أن الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت في أعماق  
نفسى كذكرى مفعمة بالعدوينة . كما أننى ما زلت مولعا بالتوت .

## الحكاية رقم « ٢ »

شمس الضحى تسطع والسماء صافية . من موقفى فوق السطح  
رأى المآذن والقباب ، وأرى غرابا واقفا على وتد مغروز فى سور  
السطح مربوط به حبل الغسيل . أرمق السطح الملاصق فيتحلب  
ريقى . تحدثنى نفسى بأن أذهب إلى ست أم زكى لأحظى بشيء من  
الحلوى . وأعبر السور . أمضى نحو المنور ، أطل من نافذة فيه  
مخلوعة الزجاج ، أرى تحت المنور مباشرة ست أم زكى عارية تماما .  
تجلس على كنبه تتشمس ، تمشط شعرها ، عارية تماما . . منظر غريب  
وباهر ، وهى فى ضخامة بقرة . وأهتف :

- يا تيزة!

ترتعب ، تنظر إلى فوق ، لا تلبث أن تضحك ، تصيح بى :

- يا عكروت . . أنزل . .

أهبط بسرعة ثم أقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل :

- أدخل؟

وتسمح فأدخل ، أقترب من مجلسها فترمقنى بنظرة باسمية  
وتقول :

- وقعت يا بطل . .

وتستلقى على بطنها وتقول :

- ذلك لى ظهري .

أشمر عن ساعدي ، أدلك ظهرها بحماس ورضا ، أشم رائحة  
جسد بشرى معبق بالصابون والقرنفل ، وهي تتمتم :

- تسلم يداك !

ثم بمزاح :

- أنت عفريت من الجنة !

ثم وهي تضحك :

- الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح .

ويزداد حماسى فى العمل فتقول :

- ارفع يدك لفوق يا شيطان ، هل ستخبر أمك ؟

- كلا .

فتضحك وتقول :

- وعارف أيضا أنه يوجد ما لا يقال ، حقيقة أنك شيطان ، هل

تعلمت التدليك فى الكتاب؟ . . ماذا تدرس فى الكتاب؟

- الفاتحة وألف باء .

- ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة ، ماذا ستأكل اليوم؟

- بامية .

- عظيم سأتغدى عندكم .

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح، تنثال الملح من فيها بلا حساب، وكذلك النكاب المكشوفة، فتحاول أُمى أن تبعدنى ولكنى أرجع، وتشير لها إشارات خفية محذرة فأنشبت بالبقاء وتمادى هى فى الدعابة. وتسألها أُمى معاتبة:

- متى تصلين وتصومين؟

فتجيب:

- فى آخر شهر قبل يوم القيامة.

فى الخمسين، مهدارة مرحة طروب ولكنها لم تنزلق لسوء. وعمل ابنها زكى نجارا فى حارتنا فسار بين الناس مرفوع الرأس وهى تدمن التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهدية، أرملة، فى كل بيت لها صديقة حميمة، لم تشبك فى مشجرة واحدة فى حارتنا الحافلة بالمشاحنات.

\* \* \*

وتتنهد أُمى ذات يوم وتقول:

- مسكينة يا أم زكى، ربنا يردك ويشفيك . .

تتوعك صحتها، وتأخذ فى التدهور، تهزل بسرعة مذهلة كأنها كرة ثقبت، يترهل جسمها فيغدو طيات من الجلد خاوية، وتخيب فى شفاؤها كافة الوصفات. وتفتى حكمة حارتنا الخالدة بأن مرضها ليس مرضا من الأمراض المعروفة ولكنه فعل من أفعال «الأسياء» وألا شفاء لها إلا بالزار. ويجىء اليوم المشهود فيكتظ بيت جارتنا بالنساء، ويعبق البخور، وتتسلط عليه جوقة من السودانيات يكتنفهن

الغموض والأسرار . وأطل برأسى من المنور فأرى صديقتى فى مشهد  
جديد ، تجلس على عرش فى عباءة مزركشة بالتلى والترتر ، متوجة  
الرأس بتاج من العاج تتدلى منه عناقيد الخرز مختلف الألوان ،  
منقوعة القدمين فى وعاء من ماء الورد تستقر فى قعره حبات من البن  
الأخضر . وتدق الدفوف وتهزج الحناجر النحاسية بالأناشيد  
المرعشة ، فتفوح فى الجو أنفاس العفاريت ، ويدعو كل عفريت  
صاحبته المختارة من بين المدعوات للرقص ، فتموج القاعة بالحركات ،  
وتتوهج بالتأوهات ، وتذوب الأجساد فى الأرواح . وهاهى أم زكى  
تتلوى بعنف كأنما ردت إلى جنون الشاب ، وعن فيها المزين بالأسنان  
المذهبة يصدر صفير حاد ، ثم يركض دائرة حول العرش ، ويتحول  
ركضها إلى إندفاع رهيب ، وتدور حتى تترنح من الإعياء وتتهاوى  
مغشيا عليها .

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبهلا :

- ليشهدنا خاتم الرسل الكرام .

\* \* \*

وهاهى الأيام تمر .

وصحة صديقتى لا تتحسن .

لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل فى جزع :

- ماذا جرى لى؟ .. ماذا جرى لى يارب؟! .. أين أنت يا أم

زكى؟!!

ويضطر المعلم زكى أخيرا إلى نقلها إلى قصر العينى . وتودع

عيناى الدامعتان الكارو وهى تتأرجح بها . وتلمحنى واقفا فتلوح لى  
بيدها وتقول :

- ادع لى فإن الله يستجيب لدعاء الصغار .

فأرفع عينى إلى السماء وأتمتم : «يارب . . رجع لنا تيزة أم زكى» .  
ولكن كأن الكارو حملتها إلى بلاد الواق الواق .

### الحكاية رقم « ٣ »

اليوم جميل ولكنه يعبق بسر .

أبى ينظر إلى باهتمام . بيتسم لى برقة وهو يحتسى قهوته . وهو  
يهم بالذهاب يداعب شعرى ويربت على منكبى بحنان ثم يمضى .  
وأمى تقوم بعملها اليومى بعصبية ، تغضى عن عبثى وتقول لى  
مشجعة :

- العب يا حيبى . .

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد .

وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولما أرجع أجد أمامى جارتنا  
الشامية أم برهوم . وأعدو إلى المطبخ لأخبر أمى ولكنى لم أجدها .  
وأنادى عليها بلا جدوى فتقول لى أم برهوم :

- نينتك ذهبت فى مشوار ، وأنا معك حتى ترجع . .

فأقول محتجا :

- ولكنى أريد أن ألعب فى الحارة .

- وتتركنى وحدى وأنا ضيفتك؟

وأصبر متضايقا .

ويدق الباب فتومئ لى بالانتظار وتذهب . تغيب دقيقة وإذا بعم  
حسن الحلاق ومساعده يدخلان ياسمين فقلت لهما من فورى :

- أبى خرج .

فقال العجوز :

- نحن ضيوف ! سنريك لعبة فريدة .

وجلس على كنبه وهو يبسم ثم قال وهو يخرج من حقيبته  
أدوات بيضاء لامعة :

- يسرك بلا شك أن تتعلم كيف تستعمل هذه الأدوات .

وأهرع نحوه متملصا من ارتباكى !

ويجىء مساعده بمقعد فيجلسنى عليه أمام المعلم قائلا :

- هكذا أفضل .

وإذا بيديه تكبلاننى من الذراعين والساقين بقوة وإحكام فكأنها  
ألصقت بالغراء والمسامير ، فصرخت غاضبا :

- ابعد عنى .

واستغثت بأمرهوم ولكنها كانت فص ملح ذاب . .

ولم أفهم شيئا مما يحدث حتى بدأت العملية الرهيبة ، ها أنا أعانى

هجمة وحشية طاغية لا أستطيع لها دفعا ولا منها مفرا . وها هو الألم الحاد القاسى ينشب أظافره الشوكية فى لحمى وينساب بمكر شيطانى إلى أطراف جسمى وصميم قلبى . وها هو صراخى يدك الجدران ويحتاج أرجاء حارتنا .

\* \* \*

لا أدرى ماذا يدور مدة من الزمن . أغوص فى الماء بين اليقظة والنوم . تمر بى أجيال من الألوان والمخاوف والأحزان . وعند نقطة من الزمن تلوح لى أمى بوجهه يرنو بالاعتذار والتشجيع .

### الحكاية رقم « ٣ »

اليوم جميل ولكنه يعبق بسر .  
أبى ينظر إلى باهتمام . يبتسم لى برقة وهو يحتسى قهوته . وهو يهم بالذهاب يداعب شعرى ويربت على منكبى بحنان ثم يمضى .  
وأمى تقوم بعملها اليومى بعصبية ، تغضى عن عبثى وتقول لى مشجعة :

- العب يا حبيبى . .

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد .

وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولما أرجع أجد أمامى جارتنا الشامية أم برهوم . أعدو إلى المطبخ لأخبر أمى ولكنى لم أجدها . وأنادى عليها بلا جدوى فتقول لى أم برهوم :

- نينتك ذهبت فى مشوار، وأنا معك حتى ترجع .

فأقول محتجا :

- ولكنى أريد أن ألعب فى الحارة .

- وتتركنى وحدى وأنا ضيفتك؟

وأصبر متضايقا .

ويدق الباب فتومىء لى بالانتظار وتذهب . تغيب دقيقة وإذا بعم  
حسن الخلاق ومساعدته يدخلان باسمين فقلت لهما من فورى :

- أبى خرج .

فقال العجوز :

- نحن ضيوف! .. سنريك لعبة فريدة .

وجلس على كنبه وهو يبسم ثم قال وهو يخرج من حقيبته  
أدوات بيضاء لامعة :

- يسرك بلا شك أن تتعلم كيف تستعمل هذه الأدوات .

وأهرع نحوه متملصا من ارتباكى!

ويجىء مساعده بمقعد فيجلسنى عليه أمام المعلم قائلا :

- هكذا أفضل .

وإذا بيديه تكبلاننى من الذراعين والساقين بقوة وإحكام فكأنها  
ألصقت بالغراء والمسامير، فصرخت غاضبا :

- ابعد عنى .

واستغثت بأم برهوم ولكنها كانت فص ملح ذاب . .  
ولم أفهم شيئاً مما يحدث حتى بدأت العملية الرهيبة ، ها أنا أعانى  
هجمة وحشية طاغية لا أستطيع لها دفعا ولا منها مفرا . وها هو الألم  
الحاد القاسى ينشب أظافره الشوكية فى لحمى وينساب بمكر شيطانى  
إلى أطراف جسمى وصميم قلبى . وها هو صراخى يدك الجدران  
ويجتاح أرجاء حارتنا .

\* \* \*

لا أدرى ماذا يدور مدة من الزمن . أغوص فى الماء بين اليقظة  
والنوم . تمر بى أجيال من الألوان والمخاوف والأحزان .  
وعند نقطة من الزمن تلوح لى أمى بوجه يرنو بالاعتذار  
والتشجيع .  
وقبل أن أفتح فمى محتجا أو متهما تضع بين يدى هدايا  
الشيكلاته والملبس .  
وأعيش أياما بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها  
البهيجة . . ويمتلئ البيت بالإخوة والأخوات .  
وأنقل من مكان إلى مكان مفرجا بين فخذى مبعدا بيدي الجلباب  
عن جسدى .

### الحكاية رقم « ٤ »

وأما مضى نحو القبو يفتح باب بيت القيروانى تاجر الدقيق وتبرز  
منه بناته الثلاث . منبع نور يتدفق فيبهر القلب والبصر . بيضاوات

ملونات الشعر والأعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحظة نقية . الدوكار  
يتنظرهن فأتسمر أنا بين الدوكار وبينهن . ويرين ذهولى فتضحك  
وسطاهن وهى أشدهن امتلاء وأغلظهن شقة تقول :

- ما له يسد الطريق !

لا أتحرك فتخاطبنى مداعبة :

- أفق يا أنت !

وأقول متأثرا بدفقة حياة مبهمة :

- بلبلى خون دلى خورد وكللى حاصل كرد .

فيغرقن فى الضحك وتقول الكبرى :

- إنه درویش .

فتقول الوسطى :

- إنه مجنون !

وألقى بنفسى فى ظلمة القبو فأمضى مهرولا حتى أخرج إلى نور  
الساحة أمام التكية . فى رأسى حماس وفى قلبى نذير نشوة البراعم  
قبل أن تتفتح .

صورهن الباهرة مستكنة فى متحق الأعماق .

بدور حب لم يتح لها أن تنمو لأنها غرست قبل أوانها .

## الحكاية رقم « ٥ »

اليوم سعيد .

سأذهب فى صحبة أمى إلى زيارة حرم المأمور .

هطلت الأمطار فى الصباح الباكر ولكن الجورق وصفنا عند  
الضحى وأشرقت الشمس . المياه تغمر فجوات الطريق وتخد جوانبه  
ولكننى سعيد بزيارة حرم المأمور .

امرأة عملاقة ، سمراء دكنا ، فى نقرة ذقنها وشم ، ونبرتها ريفيفة  
غريبة ، وضحكتها عالية ، وقطتها غزيرة الشعر نقيه البياض ودائما  
تسبح بذكر الله .

وتعانق أمى مرحبة وأن أنتظر . تلتفت نحوى ضاحكة وهى تعبث  
بشعر رأسى ، ترفعنى بين يديها فأرتفع فوق الأرض عاليا ، تضمنى  
إلى صدرها فأغوص فى أعماق طرية ، وأشعر ببطنها مثل حشية وثيرة  
ينبعث منها إلى جوارحى دفء مؤثر .

أسير وراهما وأنا أسوى ما تشعث من شعرى وملابسى ولما أفق  
من نفحة الدفء .

وتقول لأمى :

- بت أو من بأن القبو مسكون بالعفاريت . .

فتبسمل أمى فتقول الأخرى :

- إنهم يخرجون عقب منتصف الليل .

فتقول لها أمى محذرة :

- إياك وأن تنظرى من النافذة .

وألاعب أنا القطة حتى تتوارى تحت الكنبه . أنظر إلى رأس ثور  
مثبت فى الجدار فوق سيفين متقاطعين متمنيا الوصول إليه . المضيفه  
تقدم لى قطعة هريسه فأتناولها . أمنى النفس بحضن دافئ آخر عند  
انتهاء الزيارة .

ويطول الحديث ويتشعب .

وتشعل المرأة المصباح الغازى المدلى من السقف .

تدور حول المصباح فراشه .

أتساءل متى تجيء لحظة الوداع الواعده بالدفء؟

### الحكاية رقم «٦»

على حصيرة واحده نقعد صبيانا وبنات فى الكتاب . نتلو الآيات  
بصوت واحد ولا تفرق مقرعة سيدنا الشيخ بين قدم صبى وقدم  
بنت . وقدت الغداء يتربع كل منا مستقبلا الجدار بوجهه ، يفك الصرة  
ويفرش منديله كاشفا عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينية .

تسترق عيناي النظر إلى درويشة وهى تقرأ أو تأكل .

فى الطريق أتبعها حتى تميل إلى الزقاق المسدود ثم أسير إلى بيتى  
حاملا لوحى وصورتها .

وفى موسم القرافة أضيق بالمكوث فى الحوش فأمرق إلى الخارج  
فتتلاقى - أنا ودرويشة - بين القبور المكشوفة بلا تدبير .

وأشطر فطيرتى فأعطيها النصف ، نأكل ونتبادل النظر .

- أين تلعبين؟

- فى الزقاق .

هل تلعب فى الزقاق المتفرع من الحارة وأنا لا أجرؤ على التسلل إليه فى النهار . يمنعنى إحساس خفى ولكنه غير برئ . ونتواعد بالنظر وبلا كلام . ومع المساء أدخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب .

نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام .

- نجلس؟

ولكنها لا تجيب .

أجلس على العتبة وأشدها من يدها فتجلس . أتزحزح حتى نتلاصق . يغمرنى شعور بسرور غريب ذى أسرار . أمد يدي إلى ذقتها فأدير وجهها إلى . أميل نحوها فأقبلها . أحيط خاصرتها بذراعى . أصمت وأهيم وأذوب فى دفقة إحساس مبهمه فأعرف السكر قبل الخمر .

ونسى الوقت والخوف .

ونسى الأهل والحارة .

حتى الأشباح لا تفرقنا .

### الحكاية رقم «٧»

فى ليالى الصيف نسهر فوق السطح ، نفرش الحصيرة والشلت ، نستضىء بأنوار النجوم أو القمر ، تلعب من حولنا القطط ، يؤنسنا

نقيق الدجاج . وتنضم إلينا فى بعض الأحيان أسرة جارنا الحاج بشير . وهى أسرة شامية مكونة من أم وثلاث بنات كبراهن فى العاشرة . يحلو لهن فى أوقات السرور أن يغتبن معا أغنيات جبلية فأتابع الغناء بشغف يقارب شغفى بالبشرة البيضاء والأعين الملونة . أهيم بالأم وبناتها وألح فى طلب السماع ، ويستخفنى الطرب فأشارك فى الغناء وأحرز فى ذلك نجاحا وإعجابا حتى تقول جارتنا :

- ما أحلى صوتك يا ولد!

وأجد فى مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتى الصوتية كما يجد فيه قلبى الصغير نشوته فى حضرة البهاء الأثوى . ويصبح الغناء هوايتى ، وسماع أسطوانات المهدية قرّة عينى ، أما أغنيات الجبل فيشدها قلبى وحنجرتى معا .

وتقول جارتنا لأمى ذات يوم :

- الولد له صوت جميل .

فتقول أمى بسرور :

- حقا؟

- لا يجوز إهماله!

- فليغن كيف شاء فهو أفضل من العفرتة .

- ألا تودين أن يكون ابنك مطربك؟

فتؤخذ أمى ولا تجيب فتواصل الجارة :

- ما له سى أنور وسى عبداللطيف؟

- إنى أحلم أن أراه يوماً موظفاً مثل أبيه وإخوته . .  
- المغنى يربح أكثر من مصلحة حكومية .  
وأصغى باهتمام وأنا جالس على حجر الجارة مزهو بالدفء  
والمجد .

\* \* \*

ولا تدوم أيام السعادة والهن طويلاً فذات يوم أرى أمى تهز رأسها  
بأسف وتتمتم :  
- يالللخسارة!  
فأسألها عما يؤسفها فتقول :  
- جيراننا الطيبون راحلون إلى بر الشام .  
ينقبض قلبى بالرغم من أننى لا أحيط بأبعاد الخسارة وأسأل :  
- أهو بعيد؟  
فتجيب بحزن :  
- أبعد مما نستطيع أن نبلغه .  
أود من صميم قلبى أن أغير الواقع ، أن أرجع الزمن إلى أمس ،  
ولكن كيف؟  
وأودعهم للمرة الأخيرة وهم يستقلون الحانطور وأقبل بيد الحاج  
بشير . وأتبع الحانطور نظرى حتى يخفيه منعطف النحاسين . وأبكى  
طويلاً وأعانى مذاق الفراق والكآبة والدنيا الخالية . .

## الحكاية رقم « ٨ »

مواسم القرافة تعد من أسعد أيامى البهيجة .

نشرع فى الاستعداد لها مع العشى بإعداد الفطير والتمر . وفى الصباح الباكر أمضى بين أبى وأمى حاملا الخوص والريحان ، تتقدمنا الخادمة بسلة الرحمة .

يسرنى تدفق تيارات الخلق ، وطوابير الكارو ، وأعرب باب الحوش كصديق قديم . ويجذبنى القبر بتركيبه الوقور المنعزل وشاهديه الشامخين ، وسره المنطوى ، وبإجلال والدى له ، كما تجذبنى شجيرة الصبار . وتحت قبة السماء تنطلق منى وثبات فرح . ودفقات استطلاع لا يكدرها شىء ، ثم تتم المسرات بمراقبة المقرئ الضرير وجماعات الشحاذين المتكالبين على الرحمة .

وتتغير الصورة بدخول همام فى إطارها .

تجىء أختى وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن . همام فى الرابعة أو يزيد عنها قليلا ، أجد فيه رفيقا ذا حيوية وجاذبية ، ويخرجنى بمؤانسته من وحدتى . جميل خفيف الروح ، يلاعبنى بلا ملل ويصدق أكاذيبى وأوهامى .

وأجده ذات يوم راقدا وصامتا ، أدعوه إلى اللعب ولكنه لا يستجيب ، وأخبر بأنه مريض . .

ويطبق على الجواهتمام وحذر ، ويتفشى فيه ضيق وكدر ، وأتلقى أحاسيس مبهمة وغير سارة ، ويزيد من تعاستى قلق أمى وجزع أختى

ثم حضور زوجها . .

وأسأل عما يحدث فأبعد عن المكان ويقال لى :

- لا شأن لك بهذا . . العب بعيدا . .

ولكنى أشعر بأن حدثا غير عادى يحدث . .

إنه خطير حتى إن أمى تبكى . وأختى تصرخ . وألمح من بعيد  
صديقى مغطى فوق الفراش مثل وسادة . لم يترك له متنفس . وأخيرا  
يتردد اسم الموت من قريب . وأفهم أنه فراق يطول فأبكى مع الباكين ،  
ويتألم قلبى أكثر مما يجوز لسنه .

لا تعود زيارة القبر من أيامى البهيجة ، ويتغير وقع منظره . أود أن  
أطلع على خفاياه ، وأتلقى الكآبة من صمته . ولا أتغلب على لوعة  
الفراق مع كر الأيام . إنه الحزن والحب الضائع والخوف واولذكرى  
القاسية وإرهاق أسرار الغيب .

### الحكاية رقم « ٩ »

خير يتردد فى البيت والحارة .

تقول إحدى الجارات لأمى :

- أما سمعت بالخبر العجيب؟

فتسألها عنه باهتمام فتقول :

- توحيدة بنت أم على بنت عم رجب!

- ما لها كفى الله الشر؟

- توظفت فى الحكومة!

- توظفت فى الحكومة؟

- إى والله . . موظفة . . تذهب إلى الوزارة وتجالس الرجال!

- لا حول ولا قوة إلا بالله . . إنها من أسرة طيبة . . وأمها طيبة . .

وأبوها رجل صحيح!

- كلام . . أى رجل يرضى عن ذلك؟

- اللهم استرنا يارب فى الدنيا والآخرة . .

- يمكن لأن البنت غير جميلة؟

- كانت ستجد ابن الحلال على أى حال . .

وأسمع الألسن تلوك سيرتها فى الحارة، تعلق وتسخر وتنتقد،

وكلما لاح أبوها عم رجب أسمع من يقول:

- اللهم احفظنا . .

- يا خسارة الرجال!

توحيدة أول موظفة من حارتنا . ويقال إنها زاملت أختى الكبرى فى الكتاب . ويحفظنى ما سمعته عنها إلى التفرج عليها حين عودتها من العمل . أقف عند مدخل الحارة حتى أراها وهى تغادر سوارس، أرنو إليها وهى تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة الخطوة بخلاف النساء والبنات فى حارتنا . وتلقى على نظرة خاطفة أو لا ترانى على الإطلاق ثم تمضى داخل الحارة . وأتمتم مرددا كالبيغاء:

- يا خسارة الرجال!

## الحكاية رقم « ١٠ »

أم عبده أشهر امرأة فى حارتنا .

فى قوة بغل وجرأة فتوة ، حتى زوجها سواق الكارو يتراجع أمام عنفها .

ولها بنتان جميلتان ، دولت وإحسان .

فى أى موقع من حارتنا تحظى بالتودد ، من التاجر والعامل والبائع والصعلوك ، كل أسرة لها عمل وأجر ، هى الوسيطة والشفيعه والخاطبة والدلالة والماشطة ، وعند الخصومة فهى القوة التى تبطش بالخصم .

وتزور أمى أحيانا فتحكى لها عن أحوالها . وقد يقتضى الأمر تمثيل ما وقع فى آخر مشاجرة شاركت فيها فيرتفع صوتها ويتهدج بالغضب والسب والقذف حتى يتوهم السامع أن التمثيل مشاجرة حقيقة . .

وهى تجاملنا فى المواسم فتجييننا بالكارو لتمضى بنا إلى زيارة المغاورى وأبى السعود طبيب الجراح .

وأنا الرسول الذى يوفد إلى بيتها عند الحاجة . أذهب إليه بقلب طروب يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد فى الفناء ، ويتوق للقرب من دولت وإحسان .

دولت فتاة طيبة ، تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن . يحبها شاب متعلم من حارتنا فيتزوج منها متخطيا الفوارق ومجازفا

بمصاهرة أم عبده .

إحسان صورة مصغرة من أمها فى أخلاقها ولكنها باهرة الجمال . مطبوعة على العنف والجرأة والبذاءة ، تتحدى أمها نفسها فتنشب بينهما المعارك المثيرة . ويطلب يدها فتیان كادحون ولكنها ترفضهم تطلعا لفرصة فريدة كما حدث لأختها دولت . وإنى صديقها رغم فارق السن . غرائزى الكامنة ترسل إنذارات خفية تمتزج فى عيني بأشواق مبهمه . يبهرنى حجمها المترامى وأعضاؤها الثرية المترافضة . وتدعونى أحيانا لأساعدنها وهى تغسل فى الفناء . أحمل إليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبية وأمضى كالمترويح من ثقلها . أجلس قبالتها لأتسلم منها الملابس بعد عصرها لأقومها فى الطشت . فى أثناء ذلك تتلصص عياني وهى ترامق تطلعاتى باسمه .

وتقول لى ذات مرة :

- خذ منديلى واذهب به إلى الشيخ لبيب .

وأذهب إلى الشيخ لبيب فى مجلسه قبيل القبو . يتربع على فروة بجلبابه المزركش وطاقيته البيضاء ، مكحول العينين مزجج الحاجبين . أعطيه المنديل ومليما وقطعة سكر ، فيشم المنديل ويتفكر مليا ثم يقول :

- عما قريب يمتلى الكرار ويغنى العصفور . .

وأرجع إليها وأنا أردد ما سمعته لأحفظه ، ويسعدنى دائما أن أؤدى لها خدمة من الخدمات .

ويطلب يدها صاحب محل فراشة ، غنى فى الخمسين ذو زوجة وأولاد ، فتتزوج منه . تعاشره عامين ثم تختفى من بيته ومن الحارة

جميعا مخلقة ورادها ضجة و عارا وإصابة فى كبرياء أم عبده .

\* \* \*

وفى ذات ليلة من ليالى الزمن الجارى الذى لا يتوقف أجدنى  
وجها لوجه مع إحسان . ترقص وتغنى :

عومى على الميه يا بت يا شاميه

وترانى فيشع من عينيها نور العرفان . أقف ذاهلا ولكنها تتلقانى  
ببساطة وبابتسامة مشجعة . تقبل نحوى فتأخذنى من يدي إلى  
حجرتها ثم تغلق الباب وتغرق فى الضحك . وتقول لى بعد أن  
جلسنا :

- الدنيا واسعة ولكنها فى النهاية كالحق .

وأتفرس فى وجهها فتسألنى عن أمها قائلة :

- كيف حال أم عبده؟

- عال .

- ودولت أختى؟

- بكريها فى المدرسة .

- ووالدتك وأخوتك؟

- بخير .

فتقول بمودة :

- زرنى كثيرا .

وأسألها بعد تردد:

- كيف جئت إلى هنا؟

فتضحك وتقول ساخرة:

- من نفس الطريق التي جئت منها أنت!

### الحكاية رقم « ١١ »

نقف في فناء المدرسة الابتدائية جماعات ننتظر نتيجة القبول .  
أنهينا مرحلة الكتاب ، وأدينا امتحان القبول ، وها نحن ننتظر إعلان  
النتيجة .

ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضى فى تلاوة الأسماء  
من كشف بيده ثم يقول :

- لبيق منكم من سمع اسمه وليرجع الآخرون إلى بيوتهم .

لم أسمع اسمى . تشيع فى نفسى فرحة شاملة . أعتقد أن سقوطفى  
هو نهاية علاقتى بالتعليم وعصى المدرسين ، وأنى سأستقبل من الآن  
فصاعدا حياة ناعمة خالية من الكدر .

ويسألنى أبى عن النتيجة فأجيبه بارتياح :

- سقطت ورجعت إلى البيت .

- اخص . . تصورتك أفضل مما أنت . .

فأقول بسرور :

- لا يهـم!

- لا يهـم؟

- إني أكره الكتاب وأكره سيدنا الشيخ وأكره الدروس . . فالحمد  
الله على أنني تخلصت من ذلك كله .

فيقطب أبي متسائلا :

- أتظن أنك ستمكث في البيت؟

- نعم، هذا أفضل .

- لتلعب مع الأوباش في الحارة، أليس كذلك؟

فنظرت إليه بقلق فقال بحزم :

- سترجع إلى الكتاب عاما آخر، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك . .

وأهم بالاحتجاج فيقول :

- استعد لعمر طويل من التعلم، ستتعلم مرحلة بعد مرحلة حتى

تصير رجلا محترما . .

ولم أنعم بفرحة السقوط إلا ساعات!